الإفتتاحية

لا تعدنا بداياتُ القرن الحادي والعشرين بعالم أفضل وبإنسانية أرقى. فالجنون هو المحرِّك لعالم دائم القفز إلى بداية جديدة: قبل وبعد. كأن شيئاً لم يكُن قبل هذا اليوم، وكأنَّ ما بعده فاتحة على الهاوية. كلمة السرّ الوحيدة التي تتداولها صناعةُ التاريخ الآن هي: الإرهاب والحرب على الإرهاب.

الكُلُّ يعرف الإرهاب، لكن لا أحد يريد أن يُعَرِّفه. فما هو إرهاب هنا يُسمّى دفاعاً عن الحرية هناك. وأداة الاستعمال البدائية تختلف عن الوسائل التكنولوجية في تعريف المفهوم. ولا يبدو أن الانتقائية هي التي تُشَوِّش المفهوم بقدر ما يبدو أن الأقوياء هم سادةُ المفاهيم القادرون على تقسيم العالم إلى حارتين: حارة البربرية، وحارة الحضارة.

«مَنْ ليس معنا فهو مع الإرهاب»... «معنا» الأميركية تعني الانحياز الكامل للتعريف الأميركي للإرهاب، وتعني تأييد الحرب الأميركية الشاملة على ما تحدّده من أهداف معلنة وغير معلنة، الآن وغداً، دون أن يعرف أحد ما هي تخومها.

من المفارقات المدهشة أن ممثلي «الحضارة» وممثلي «البربرية» يلتقون عند حدود المطلق، فبن لادن، «القطب العالمي الجديد»، قادر هو أيضاً على تقسيم العالم إلى خيمتين: خيمة المؤمنين، وخيمة الكُفّار. ومن ليس معه فهو كافر. أهنالك ما هو أشدُّ بؤساً من خلاف ينطوي على مثل هذا المشترك؟ لا لأن بن لادن ارتدَّ عن دينه السياسي الأميركي، بل لأنه لا يعترف بتعددية الظاهرة الحضارية، فليس الغرب كله غرباً، ولأنه يُزوِّد خصمه جورج بوش بما يحتاج إليه من جعل الشرق كله شرقاً. وهكذا تتغذى الصليبية الجديدة من مصدرين يبدوان في الظاهر متناقضين. أما في الجوهر، فإنهما يتعاونان على تطوير القطيعة!.

وكلاهما احتاج إلى فلسطين – الذريعة: أحدهما لإقناع بعض الدول العربية والإسلامية في دخول الحرب العالمية على إرهاب لا وطن له، والثاني لإضفاء صفة العدالة على دوافع العمليات الانتحارية ضد رموز الشيطان، دون أن يكون لفلسطين من دور سوى دور المشجب. الأغنية واحدة والمغنّي هو الذي يتغيَّر. فالدولة الفلسطينية الموعودة حقٌّ لا جائزة ترضية غامضة. وهي ثمرة نضال عادل ومشروع يقوده وعي عميق بالتعددية والعلمانية، لا يلتقي مع عقليات الحصرية، ولا يتقاطع مع مفهوم حتمية الصراع بين الحضارات والأديان الذي يقسم العالم إلى خير مطلق وإلى شرٍّ مطلق.

لقد تعاطف العالم مع الشعب الأميركي في محنته، وأدان العمليات الإرهابية التي أوقعت آلاف الضحايا من المدنيين الأبرياء، لا لتوفير الغطاء الأخلاقي لمحاربة جنون الأفراد بجنون الدول، بل للتأمُّل العميق في تفسير – لا تبرير – الدوافع التي تدفع بعض الضعفاء إلى استخدام أسلحة الإرهاب، وللبحث عن أسبابها خارج «الطبيعة العنصرية الملازمة لبعض الثقافات»، بل في أحوال العلاقة بين الشمال والجنوب، بين الهويات الخائفة والعولمة العاصفة، وبين عالم ما قبل الحداثة وما بعد الحداثة، وما تنتجه هذه الفوارق من توتر وإحباط ويأس يوفر المناخ الصالح لداء الإرهاب الذي لا شفاء منه إلاّ بالعدالة.

إن الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة ضد أفغانستان لن تحلّ مشكلة الإرهاب، ولن تدفع الغاضبين على السياسة الأميركية إلى تغيير موقفهم من تحالفها مع الاستبداد والاحتلال، بل ستضيف إلى لائحة المظالم الطويلة بنوداً جديدة. فهذه الحرب المعلنة على الأشباح لن تصيب إلاّ الأبرياء. إن تخريب الخراب الأفغاني هو ضرب من ضروب العبثيّة الدمويّة، فليس في وسع الطائرات الحربية أن تدفع الأشباح إلى الاستسلام، ومهما ازدادت علب البسكويت التي تلقيها الطائرات على القتلى، فإنها لن تضفي على القتل طابعاً إنسانياً. فالموتى لا يأكلون البسكويت ولا الخبز!